المحاضرة رقم : 04

الصناعات الحرفية : الفخار

تحتل الفخاريات قيمة أثرية وتاريخية كبيرة، كونها من أكثر اللقى الأثرية انتشارا في المواقع الأثرية، ومعيارا مهما في قياس حركية تطور المجتمعات القديمة ونضجها التقني. حيث أنها ظهرت مع البدايات الأولي للحضارات القديمة لتمثل قدرة الانسان على تطويع الخامات البيئية لتلبية احتياجاته اليومية، وقدرته على الابتكار الهندسي لاعتماده علي الآلة واستخدام الدولاب الذي يعتمد علي حركته الدائري في تشكيل الأواني الفخارية، فضلا عن سمكها، زخرفتها وتلميعها بألوان مختلفة من خلال التحكم في كيفيات ودرجات الطهي أو استعمال مواد إضافية. مما. و تعد هذه الفخاريات ، لاسيما على السطح، الأمر الذي جعل جمعها وتصنيفها مهما في ضبط الاطار الزمني للمواقع المدروسة.

وعرف المغاربة القدماء هذه الصناعة منذ فجر التاريخ، وتشهد على ذلك البقايا التي عثر عليها في القبور الميغاليتية وغيرها، ويرى كامبس أن ازدهار هذه الحرفة قد كان سابقا لقدوم الفينيقيين مشيرا لآنيات فخارية بالأوراس، فكانت هذه الصناعة توفر وسائل تستخدم في الحياة اليومية، وقد شملت مختلف الأواني المنزلية وزينت بزخارف تشبه إلى حد كبير ما هو سائد اليوم في بعض المدن المغاربية منها منطقة الحضنة والقبائل والأوراس وجنوب تونس، كما نجد استخداما آخر للفخار في الأثاث الجنائزي، سمي بالفخار النذري تتجلى أهميته فقط في قيمته التعبدية.

ويمكن تقسيم هذه الفخارية الى عدة أصناف منا الفخار العادي، فخار الطبخ ، السيجيلي الافريقي ذو اللون البرتقالي وكثيرا ما تمثلت في أواني الطاولة والاستهلاك اليومي. فضلا عن فخار الأمفورات أو الحاويات التي كانت تنقل الحبوب و السوائل كالزيوت و الخمور، وقد أفضى هذا النوع من الفخار على التعرف على مناطق الإنتاج، لا سيما وانها اشتهرت بحملها لأختام الورشات التي صنعتها أو كانت تقوم بنقلها.

ومهما كانت جودة الفخاريات الإفريقية فان كثافة هذه المادة الأثرية قد أفضت بأصناف كثيرة مستورة من مختلف مناطق البحر المتوسط، وقد نذكر على سبيل المثال الخريطة التي

أنجزناها انطلاقا من الحفرية الخاصة بموقع لامبيز، حيث سمحت اللقى الفخارية المصنفة أنها غير محلية من الوقوف على حركية تبادل و تنقل كبيرين لم يكن متاحا التعرف عليها دون مقابلة أشكال هذه الأصناف

واعتبر الفخار ذو الطلاء الأسود هو اكثر أنواع الفخار المتداول خلال مراحل الممالك، وشكل اكتشافه في العديد من المواقع على التأكيد على حركية التبادل التجاري، التي تؤكدها الامفورات (الحاويات) المكتشفة أشكالها المختلفة على سواحل المتوسط. ولعل أحسن دليل هي الجزار الاغريقية المكتشفة بضريح الصومعة.

ويمكن القول أن الصناعات الفخارية كانت مزدهرة جدا في قرطاجة والأراضي البونيقية، وانتشرت إلى خارجها عبر مختلف المناطق الإفريقية، ونلاحظ أيضا أن سكان سواحل المغرب القديم (بعض المراكز البونيقية في الجزائر وخصوصا في المغرب الأقصى) قد تذوقوا المنتجات الإغريقية المستوردة منذ القرن السادس ق.م على الأقل، مما يدل على تطورهم الثقافي والحضاري بشكل كاف لتذوق هذه المنتجات، ليس هذا فقط بل سارعوا إلى تقليدها في فترات مبكرة جدا، وإن كان للقرطاجيين الدور الرئيسي في نشر هذه المنتجات بالسواحل الافريقية، لكن هذا لم يمنع من أن تكون الحضارة المحلية (من نوميدية وموريطانية) مخصبة بالمؤثرات المتوسطية عموما والإغريقية خصوصا سواء في الصناعات الفخارية، أو غيرها.

غير أنه ابتداء من القرن الثاني قبل الميلاد أصبح الفخار الكامباني، الوافد الجديد على أسواق الفخار الافريقية، هو النمط المهيمن حيث انتشر بسرعة سواء في المناطق التي أصبحت تابعة للرومان (مقاطعة افريقيا بعد عام 146ق.م) أو المناطق الخارجة عن سيادتهم (مثل هيبون وسيرتا بنوميديا وفوليبيليس بموريطانيا)، لتهيمن روما على تجارة الفخار بشمال افريقيا بأكملها.

وعلى هذه الأنماط نجد تقسيمين معروفين للفخار الإفريقي القديم الأول تقسيم لكامبس الذي قسمه لفخار عائلي موجه لمختلف الاستعمالات وخزف جنائزي ليس له سوى قيمته الطقوسية، وتقسيم عرف لدى غزال يقسمه حسب شكله من ناحية اللون والزخارف، حيث يشير إلى فخار غير مزخرف كالقدور والصحون والمصابيح، وفخار مصبوغ ومزخرف خاصة باللونين الأسود والأحمر.

وأقدم الاكتشافات للفخاريات هي لفخار جنائزي اكتشف في قبور المغاربة القدماء، سماها الآنية الخزفية الصغيرة Microcéramique والآنية الطقوسية التي ليس لها غير الأهمية الدينية،

يظهر عليها التأثير البونيقي بشكل واضح خاصة المكتشف قرب المدن بالمناطق الشرقية، وعن وظيفه هذا الفخار فيمكن ذكر:

- أواني الطهي مثل القدور المختلفة والجفن، والطاجين والكسكاس، لونها رمادي داكن أو أسود مع عدم وجود زخارف عليها (وهو الطابع العام في الآنية المعدة لطهي الطعام) ، كما نجد من أنواعه الطواجين لإعداد الرقائق (الكسرة)، والكسكاس الذي كان إناء مخروطي الشكل بقاعدته ثقوب كثيرة يوضع فوق القدر، ويعتبر طعام أصيل في بلدان شمال افريقيا،

- أواني الأكل أي الصحون والأطباق التي تختلف من حيث الحجم والعمق وأشهرها المثرد، فكانت صناعتها بسيطة وقلما كانت تزخرف، وحتى الزخارف إن وجدت تكون بسيطة للغاية،وتقدم بها الأطعمة الجافة، ونجدها على عدة أشكال بعضها عميق بشكل مخروطي، والآخر ذو قاعدة مستوية وحافة أقل اتساعا، وتعتبر من أقدم الأشكال الفخارية المكتشفة، حيث استخرجت من المدافن البروتوتاريخية.

- أواني الشرب فنجد الفناجين والأقداح والأباريق والكؤوس، مزخرفة باللون الداكن أو الأسود رفقة اللون الأحمر، وتعتبر الأكثر عددا في اللقى الأثرية، وتعتبر من أنية المائدة الرئيسية تقدم بها الأطعمة السائلة التي يتم شربها مباشرة.

- أواني التخزين والنقل التي تتمثل في الجرار والأنفورات Amphores لنقل الزيت والنبيذ والزيتون المخلل والمرق والحبوب، وصنع المغاربة هذه الجرار وفق أنماط مستوردة إغريقية، بونيقية وإيطالية، لكن مع القرنين الأول والثاني ميلادي طوروا نماذج خاصة بهم تتمثل في النموذج الافريقي الأول والثاني يختلفان عن النماذج الأخرى في الشكل والسعة، وتطورت صناعتها لتصدر إلى خارج المغرب القديم حيث عثر على نماذج منها في ميناء أوستي Ostie تحمل ختم مدينة تيكلاتTubusupt.

- المصابيح : كما نجد صناعات فخارية أخرى كالمصابيح التي تكون بلون رمادي أو داكن أو أسود، لا تزخرف عادة، لها فتحة مركزية كبيرة ناحية الأعلى يصب من خلالها الزيت وفتحة أخرى أمامية توضع بها الفتيلة التي تمتص الزيت من الخزان حتى تبقى مشتعلة

ويجدر بالذكر أننا نجد اختلافات بين الفخار الحضري المكتشف بالمدن، والفخار الريفي الذي كان يصنعه الفلاحين.